

هل نحن قومية واحدة أم عدة قوميات...؟



أبلد أفرام

الاثر البالغ في هذا الانتساب، فعلى سبيل المثال قبل الفتوحات العربية الاسلامية لم يكن هناك أحد من المسيحيين ينسب نفسه الى العرب لأنه لم يكن هناك أصلاً مسيحي من أصول عربية لا في لبنان ولا في الاردن ولا في سوريا ولا في العراق بأستثناء عدد محدود من نصارى الجزيرة والذين اضطروا الى

لا شك ان المسيحيين عامة في الشرق الاوسط دخلوا أو يدخلون تحت مظلة تسميات قومية متعددة بغض النظر عن مدى صحة هذا الانتماء أو الانتساب، فهناك من ينسب نفسه الى العرب واخر الى الكلدان وغيره الى الاشوريين وايضاً الى الكورد كما لدينا من ينسب نفسه الى التركمان وكان لعامل التسلط او السلطة

مغادرتها في عصر صدر الاسلام وتوجهوا شمالاً. والحالة هذه تنطبق على العديد من الانتماءات الاخرى، غير انني لا أريد الخوض في هذا المجال لأنني أريد فقط التطرق في هذا المقال الى التسميات الثلاث (الكلدان، السريان، الاشوريين)، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أنني على يقين من ان الانتماءات الاخرى لا أساس لها من الصحة الا ما ندر وبعد انتشار المسيحية. ففيما يتعلق بالتسميات الثلاث والذين ينضون تحتها اصبحوا اليوم شغلنا الشاغل، لا سيما بعد ان راح كل طرف منهم يعتز بتسميته لا بل يحاول فرضها على الاخرين بغض النظر عن مدى صحتها او حقيقة الانتماء اليها، أو بكونها تسمية ذات مدلول قومي من عدمه، وبذلك اصبح لكل طرف رأيه وينظر الى الموضوع من منظوره الخاص، غير ان للتاريخ والحقيقة رأي مخالف. ومن أجل ايضاح ذلك لا بد لي أن أخوض في عمق التاريخ ولكن بأيجاز كبير، ففي الوقت الذي يحاول المدعون بالاشورية تعميم تسميتهم على الكلدان والسريان، أطلب من هؤلاء الاخوة ان يراجعوا أنفسهم أولاً

ومن ثم التاريخ قبل اصرارهم على رأيهم وعلى تعميم التسمية التي يحملونها الان وينادون بتوحيد الصفوف تحت مظلتها، أنا اتمنى ان نتوحد تحت راية تسمية قومية واحدة مجردة وفق أسس علمية وتاريخية ومنطقية، وليس بالاستناد الى افتراضات و أوهام أو أسس غير صحيحة، والوحدة لا تتحقق من خلال اتباع تكتيكات ووسائل احتيالي من اجل كسب سياسي او مغازلة الاخرين لتحقيق الاهداف، كما ولا تأتي من خلال لصق تسميات متعددة ببعضها، انما تأتي من خلال الايمان بها والعمل من اجلها بنيات صافية وبذهنية متفتحة والتراجع عن فرض الرأي والتنازل عن التزمّت وكذلك عن المصالح الذاتية والفئوية والاستعداد للأعتراف بالواقع والحقيقة، واما رفع شعارات وحدوية من اجل الاستهلاك المحلي ولصق التسميات ببعضها فلا يخدم الوحدة ولا يحققها قطعاً بل يرسخ التشرذم والتشتت. قد يتوقع البعض بأنهم سيفلحون من خلال هذا الدمج وبمرور الزمن اضعاف الشعور القومي لدى الكلدان ومن ثم احتوائهم بعدئذ، ان هذا ما هو سوى تفكير عقيم في الحقيقة. عليه فلا بد من تسليط

٣- تؤكد المصادر التاريخية بأن الكلدان كانوا ينقسمون الى عدة فئات وليس قبائل فقط ومنهم على سبيل المثال (الاثوريون، الارمان، النينويون، الجرامقة، الاكديون، النبط، وأهل السواد ... وغيرهم)**.

٤- يذكر عدد من المؤرخين والكتاب بأن اسم الموجة السامية التي خرجت من شبه الجزيرة كان الموجة الكلدية اي الكلدانية وسميت بالموجة الشاملة وكانت تضم كل الذين تشعبوا منها وحملوا تسميات فرعية وجانبية اخرى لاحقاً وهم (الاكديين، البابليين، الاشوريين، الاموريين، الاراميين، النبط، الجرامقة، وأهل السواد .. وغيرهم)***.

٥- كان الجميع يتكلمون اللغة التي سميت بعد تأسيس الدولة الاكديّة باللغة الاكديّة ويكتبون بالخط المسماري باستثناء شقهم الذي سكن المناطق العليا في الشام والذي سمي بالاراميين بناء على ذلك، حيث تبنى الاحرف الفينيقية علماً بأن المفردات كانت مشتركة وقريبة من بعضها ومختلطة وحتى السومرية ايضاً، وتأيداً لما جاء اعلاه كان سرجون الاكدي قد اطلق على امبراطوريته اسم (امبراطورية الكلدان

الضوء على الحقيقة واطهارها رغم كونها مرة لاذعة قد لا يستسيغها البعض ولكن هذا شأن قول الحق فما العمل؟ لذا فلا بد من الاشارة الى الامور الاتية:

١- لو رجعنا الى تاريخنا القديم اي الى ما قبل الميلاد لوجدنا بأن الاشوريين ما كانوا سوى قبيلة كلدانية أو جزءاً من الامة الكلدانية وكانوا يسكنون مع بني جلدتهم في ارض شنعار أي (بلاد بابل)* ولكنهم ولأسباب دينية اختلفوا مع بقية القبائل الكلدانية وتركوا موطنهم متوجهين شمالاً ليسكنوا (شرو-قاط) أي شرقاً الحالية بعد ان فشلوا في فرض الاله الذي كانوا يعبدون وهو الاله (آشور) كرئيس لمجلس الالهة البابلية حيث رفضت بقية القبائل الكلدانية ذلك لكون الاله آشور حسب رأيها الها وضيعاً قياساً بالالهة الاخرى كمردوخ وأنو وعشتار وغيرهم.

٢- ان تسمية اشور اصلاً لم تكن تسمية ذات مدلول عرقي او قومي او تسمية جنس من البشر وانما كانت اسماً لصنم من الاصنام ، لأله قديم والذي كانت تعبده احدى القبائل الكلدانية كما نوهنا وذلك قبل الالف الثالث ق.م.

العظيمة)**** وهذا يدل على اعتزاز الملك سرجون الاكدي بأتمائه الى الجنس الكلداني.

٦- كان الجميع وأعني هنا (الكلدان، الاشوريون، الاراميون...) يحتفظون بنفس الخصوصيات كاللغة والعادات والتقاليد والاحتفال برأس السنة البابلية وعبادة الالهة البابلية القديمة وكذلك تسمية رؤساء قبائلهم وشيوخهم بالملك (ملك) وهذا ما كان يفعله الكلدان القدماء.****

٧- بعد انسلاخ عبدة الاله آشور عن جسد امتهم الكلدانية وتركهم لبلادهم بابل وبعد مئات السنين تمكنوا من تأسيس دويلة أو أمانة في المنطقة التي سكنوها على حساب شعب سوبارتو (شوبارتو) المغلوب على أمره واطلقوا عليها اسم آشور تيمناً بألههم وما لبث ان عم عليهم الاسم وعرفوا به من ذلك الحين ودخلوا في ثلاث مراحل بالاستناد الى قوتهم ونفوذهم. سميت المرحلة الاولى التي مروا بها حين كانوا ضعفاء يستقلون احياناً ويخضعون لسلطة الاخرين احياناً بالعهد الاشوري القديم والذي امتد لغاية سنة ١٥٠٠ ق.م وبعد هذا التاريخ كونوا

لأنفسهم دولة مستقلة وقوية بدأت بتهديد الدول المجاورة لها لا بل باتت تشكل خطراً حقيقياً عليها ومنها الامارات الكلدانية في الجنوب وامتد هذا العهد او العصر لغاية ٩١١ ق.م حيث تحولت الدولة الاشورية الى امبراطورية قوية وامتد الى اطراف واخضعت لسلطتها بلاد الشام الحالية ولبنان وسيناء وأجزاء واسعة من بلاد اورارتو (تركيا الحالية) وكذلك ايران اضافة الى بلاد بابل في الجنوب علماً ان بدأ الصراع الكلداني الاشوري والذي دام زهاء ١٠٠٠ عام كان قد بدأ منذ بداية العصر الاشوري الوسيط وانتهى بسقوط نينوى على يد التحالف الميدي الكلداني عام ٦١٢ ق.م وجاء في حوليات الملوك الاشوريين اسم (يمشا دكلدايي) أي (بحر الكلدان) وكان هذا في مطلع الالف الثاني ق.م عندما استغل هؤلاء الملوك ضعف السلطة في بابل. ونعود الى سقوط نينوى كما جاء اعلاه حيث قام الميديون بأبادة من وقع في ايديهم من الاشوريين ونهبوا بيوتهم وقصور ملوكهم وقادتهم، وفي عام ٦٠٩ ق.م قضى القائد الكلداني الشاب نبوخذ نصر على اخر وكر للأشوريين في

حران حيث كان قد اعتصم القائد الاشوري (أشور أوبالط) منتظراً وصول القوات الفرعونية لمساعدته وكانت قد دارت معركة عنيفة بين القوات الكلدانية من طرف وقوات فرعون مصر ومن كان بصحبة اشور أوبالط الذي كان قد تمكن من الفرار من حران ولجأ الى كركميش حيث خيمت القوات الفرعونية من طرف اخر، وقيل كانت معركة دامية بين الطرفين لم يشهد التاريخ مثيلاً لها وابتدت فيها القوات الفرعونية وتم القضاء على اخر قوة اشورية وبذلك انقطعت سيرة الاشوريين بعد هذا التاريخ والى الابد، ولم يبق اسم اشور يطلق بعد ذلك الا على بقعة جغرافية كانت تمثل لب الدولة الاشورية.

٨- خلال المعارك الدامية التي كانت تقع بين الامارات الكلدانية والدولة الاشورية بسبب مقاومة الكلدان للنفوذ الاشوري كان الملوك الاشوريون قد رحلوا زهاء مليون كلداني من اماراتهم الى اقصى شمال وشمال شرق وشمال غرب الدولة الاشورية اضافة الى اطراف نينوى وكانوا يحصرون هؤلاء الاسرى في مناطق

وتجمعات كانوا يطلقون على كل منها (بيث شيبا) أي بيت السبايا. *****

٩- فيما يتعلق بالكلدان كانوا وكما يذكر المؤرخون قد مروا بمراحل عديدة منذ ما قبل الطوفان فلاحقاً وكما يبدو كانوا قد حكموا البلاد مراراً ولكن احياناً بأسماء اخرى كالبابليين والاكديين وكانت اخر فترة حكمهم التي يسميها بعض المؤرخين العرب بسلالة بابل الحديثة أو الاخيرة والتي حكمت خلال الفترة (٦٢٦-٥٣٩) ق.م. وسقوط الدولة الكلدانية خضعت البلاد لحكم المحتلين اذ يقول المؤرخين: بسقوط الدولة الكلدانية انتهى اخر نظام حكم وطني وخضعت البلاد من بعدهم لحكم الاجانب ابتداء من الاخمينيين العيلاميين ومن ثم الرومان ومن بعدهم الفرثيين فالفرس الساسانيين ولغاية الفتوحات العربية الاسلامية ٦٣٦م وبعد سقوط الدولة العباسية حكم المغول والتتر ومن ثم الصفويون لبعض الوقت ثم العثمانيون الذين حكموا بأسم الاسلام فكانت دولتهم بمثابة الخلافة الاسلامية وطيلة هذه الفترة الطويلة بعد سقوط الدولة الكلدانية لم تنقطع سيرة الكلدان وفق ما أوردته

المصادر وبضمنها الكنسية.

من سوريا ولتسمية سوريا منابع ومصادر عديدة ايضاً وأقربها الى الواقع الرأي القائل بكونها مأخوذة من اسم سوربوس باني مدينة انطاكيا وهناك من ينتقي هذه التسمية ويتخذ من احد المصادر اليونانية تفسيراً وحيداً لها لتقوية حجته وهي ان هذه التسمية أي (سوريا) مأخوذة من أسيريا وهذه بدورها مأخوذة من الاشورية، وفي الالفية الثانية للمسيحية بدأت الكنيسة الرومانية محاولاتها لإعادة مسيحيي المشرق الى كنفها ثانية وبعد سنوات طويلة افلح المرسلون في ذلك ولم يبق من النساطرة الا من كانوا يعيشون في المناطق الجبلية النائية ومنها منطقة هكاري في كوردستان تركيا وفي أورميا في ايران حيث عاد الآخرون الى كاثوليكيتهم كما كانوا قبل الانقسامات.

١١- في اواخر القرن التاسع عشر حلت جماعة بروتستانتية متمثلة بوفد كنيسة كنتربري البريطانية برئاسة ويكرام في ديار النساطرة في منطقة هكاري وفي البداية توجهت الى اورميا في ايران ومن ثم شرعت بالتغلغل بينهم لعلها تقنعهم بالدخول في المذهب البروتستانتية ولكنها

١٠- بعد انتشار المسيحية في البلاد ودخول معظم الكلدان تحت مظلة الدين الجديد ترك المنتصرون منهم لبعض الوقت تسميتهم القومية ظناً منهم بأنها ذات مدلول وثني غير انهم عادوا ليحملونها من جديد بعد ان لم يبق هناك كلداني وثني وهذا ما فعله الاراميون ايضاً في الشام، وحملت الكنيسة الكلدانية تسمية كنيسة المشرق ذاتها، هذه الكنيسة التي سميت على اشكال متباينة اذ سميت تارة بالكنيسة الكلدانية واخرى بكنيسة المشرق واحياناً بكنيسة فارس لا سميها بعد انفصالها عن الكنيسة الام في روما، وتعرضت الكنيسة المشرقية الى هزات عنيفة اثرت عليها كثيراً وبسببها انقسمت الى كنائس عديدة والى مذاهب مختلفة، وفي القرن الرابع الميلادي وردت التسمية السريانية من سوريا وطغت على المسيحيين في بلادنا واثرت الانقسامات المذكورة اطلق على المسيحيين في العراق بالسريان الشرقيين وعلى المسيحيين في كل من سوريا ولبنان والاردن وانطاكيا بالسريان الغربيين ومصدر التسمية هذه

ولكن شريطة قيامهم بتأييد بريطانيا وتنفيذ ما يطلب منهم فقبلوا بذلك مسرورين لانهم ما كانوا على علم بالمكر السياسي البريطاني وبسياسة بريطانيا والاساليب الاستعمارية، وقال لهم ويكرام غير اننا لا نستطيع ان نؤسس لكم دولة بأسم النسطورية ولا بأسم الكلدان وهو الاسم الذي كانوا يحملونه لغاية تلك اللحظة، مبرراً ذلك بوجود الكلدان في العراق وهم على مذهب مغاير لمذهبكم لا بل هم اعدائكم لذا عليكم اختيار تسمية اخرى غير هاتين التسميتين فاحثاروا في امرهم، ولما كانت الطبخة معدة قبل مجيء الوفد قام ويكرام بالاقترح عليهم لحمل اسم الاثوريين لانه كان هناك شعب يحكم هذه البلاد قبل الميلاد بهذا الاسم فقولوا نحن احفاده ونحن سنساعدكم في نشره، فقبلوا بالمقترح وبعد ان شعرت الحكومة العثمانية بخطورة هذا التدخل وبتعاون هؤلاء الكلدان النساطرة مع البريطانيين الغرباء شنت عليهم حملات اباداة فما كان منهم سوى اللجوء الى ايران وتحقيقاً لأهدافهم قام البريطانيون بتسجيلهم في الجيش الليبي اي (جيش المرتزقة) وتحملوا

فشلت في مسعاها غير ان هذا كان الهدف المعلن للوفد، اما الهدف الحقيقي فكان ايجاد موطن قدم للدولة البريطانية في اراضي الدولة العثمانية التي كانت في وضع متدهور جداً حتى وصفت بالرجل المريض وكان هذا الولوج بأسم الدين لان مبرر الدين كان يمثل الباب الاوسع للدخول في المنطقة وكانت حينذاك روسيا القيصرية هي الاخرى قد فعلت ذلك ايضاً قبل بريطانيا فأرادت بريطانيا منافسة روسيا في مسعاها، اراد الوفد البروتستانتى كسب ود البطريرك مار شمعون فعرض عليه دعماً ثقافياً ومساعدات عينية ومالية اضافة الى قيامه بتخصيص مبلغ قدره (٧٠٠٠) جنيه سنوياً للبطريركية في قوجانس حتى تمكن الوفد من كسب ود البطريرك واتباعه ايضاً وصدقوا جميع ادعاءاته لبساطتهم وعدم درايتهم بالنوايا الحقيقية للوفد. ادعى ويكرام بأنه ارسل من قبل العرش البريطاني لأنقاذ هؤلاء المسيحيين النساطرة من ظلم العثمانيين والشعوب المسلمة المحيطة بهم، فوعدهم ويكرام بأنه سيشكل لهم دولة في شمال وادي الرافدين

وبلات متعاقبة من جراء ذلك حتى بعد جلبهم الى العراق كما حدث في سميل وكل ذلك بفعل بريطانيا وذلك الوفد اللعين الذي منحوه ثقتهم ومنذ ذلك الحين حمل بني امتنا هؤلاء التسمية الاثرية وحورت بعد عقود من الزمن الى الاشورية لتتماشى مع التسمية القديمة وتمسكوا بها بشكل غريب وبتعصب مفرط وحتى يومنا هذا، ومن الجدير بالذكر كان ختم البطارقة الشمعونيين لغاية ما بعد عهد البطريك الشهيد مار شمعون بنيامين يحمل عبارة (محيلا شمعون بطريكاً دكلدايي) أي الضعيف شمعون بطريك الكلدان.

١٢- لو لاحظنا سيرة التسمية الكلدانية منذ سقوط الدولة الكلدانية عام ٥٣٩ق.م وحتى اليوم لوجدناها متواصلة دون انقطاع في حين كانت سيرة التسمية الاشورية قد انقطعت لمدة تزيد عن (٢٤) قرناً من الزمن فكيف تعاد بعد الاف السنين؟ واذا كان قد ورد ذكر اشور في مصدر او مصدرين فانما المعني بالتسمية بلاد اشور القديمة ليس الا وان ورد خطأ في رسالة لأحد البابوات اسم او عبارة (شمعون بطريك الاثوريين الشرقيين) في

القرن السابع عشر انما هو تحريف او ترجمة مغلوطة عن (السريران الشرقيين) لان التاريخ يذكر السريران الشرقيين كما ذكرناه اعلاه ولا توجد تسمية اثوريين شرقيين.

١٣- وبالعكس ما جاء اعلاه نجد مار ماروثا الميافرقيني في ترتيبته الخاصة بشهداء الاضطهاد الاربعيني التي كان قد افها في القرن الرابع الميلادي والتي لها مكانتها في كتاب الحوذرا يطلق اسم الكلدان دون غيره على المسيحيين المتعرضين للاضطهاد على يد الملك شابور الثاني (٣٣٩-٣٧٩)م وهذا يعني بان التسمية الكلدانية كانت التسمية المتداولة حينذاك دون غيرها. *****

١٤- لقد حملت كنيسة المشرق اسم الكنيسة الكلدانية منذ القديم كما حملت احياناً اسم كنيسة المشرق وحياناً سميت كنيسة فارس لاسيما بعد انفصالها عن الكنيسة الام كما كانت تسمى لغتنا لحد أقل من نصف قرن قبل الان اللغة الكلدانية وهناك العديد من المصادر تثبت ذلك واما التسمية -اللغة السريانية- فلقد ترسخت رسمياً في الدولة بعد عام

والمطالبة بالولوج تحت مظلتها فهو امر مرفوض وهو يزيد من فرقتنا وتشتتنا كما يرسخ الفئوية بيننا، فالحكمة والمنطق والعقل المتفتح تدعونا الى الاقرار بالحقيقة وبالاستناد الى التاريخ والمصادر التي تقطع الشك باليقين ومن ثم التنازل عن المصالح الفئوية والذاتية والتخلي عن التزمتم المستند على الافتراضات والاجتهادات المغلوطة لذا فلتوحد جيمعاً تحت تسمية قومية واحدة وكفاناً جدالاً وسجالاً.

١٩٧٢ واطلقها النظام البائد كما اطلق على جميع المسيحيين باستثناء الارمن تسمية (الناطقين بالسريانية) وكان يقصد من ذلك تعريبهم وانتزاع التسمية القومية منهم كما اعلنها رسمياً في تعداد عام ١٩٧٧.

١٥- ان ما جاء اعلاه يثبت كوننا جميعاً أبناء قومية واحدة ولسنا ابناء عدة قوميات ولهذه القومية تسمية واحدة مجردة غير مركبة وهي السبيل الى وحدتنا اما اختلاق تسميات مركبة ومتعددة

المصادر والهوامش:

- * العهد القديم- سفر التكوين الاصحاح العاشر.
- ** المسعودي- الاشراف والتنبيه -ص ١٠
- *** أ-المسعودي- الاشراف والتنبيه
- ب- محمد عزة دروزة- تاريخ الجنس العربي المجلد الثالث ص ٢٤
- ج- أحمد رفيق- التاريخ العام- الجزء الاول ص ١٦٣-١٦٦
- د- أدي شير - كلدو وآثور - ج ١
- *** احمد سوسة- مفصل العرب واليهود في التاريخ ص ٢٠١-٢١٠
- هاري ساكز- عظمة بابل ترجمة د. عامر سليمان ص ٩٠
- ***** أ-د-ك-ل- استار جيان/ جاك مروغان تاريخ الامة الارمنية ص ٣٠
- ***** كتاب الحوذرا للصلوات الطقسية للكنيستين المشرقتين الكاثوليكية والنسطورية.